السنة الثانية **مقياس "النقد العربي المعاصر" -2-**

السداسي 4 (مج1) إعداد د . امحمّد يقوته نور

لسانيات تطبيقية

5 ـ الغموض في الشعر

يقترب حازم القرطاجني (ت 684 هـ) في حديثه عن " الغموض في الشعر" من مبحث " التعقيد اللفظي و المعنوي " ومن " الفصاحة" في البلاغة العربية . فهو يقرّر ـ أوّلا ـ أنّ "الدّلالة على المعاني على ثلاث أضرب : دلالة إيضاح ، و دلالة إبهام ، و دلالة إيضاح و إبهام معا " . ثمّ يبيّن أنواع الغموض في الشعر قائلا : " ووجوه الإغماض في المعاني : منها ما يرجع إلى المعاني أنفسها ، و منها ما يرجع إلى العبارات و الألفاظ المدلول بها على المعنى ، و منها ما يرجع إلى المعاني و الألفاظ معا " .

فممّا يرجع إلى المعاني أن يكون المعنى دقيقا في نفسه ، أو أن يكون مضمّنا معنى علميّا أو خبرا تاريخيّا ، لا يفهم المعنى إلّا باستحضاره . فمن دقّة المعنى قول أبي تمّام :

رَعتْهُ الـفَيافِي بعـــدما كان حِقْـــبَـــةً رَعاها،وماءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ سَاكِبُهْ

فَأَضْحَى الفَلا قدْ جَدَّ في بَرْيِ نَحْـــضِهِ و كان زمـــــانًا قَبل ذلك يُلاعِبُهْ

فأبو تمّام يستحضر وحدة " الرّحلة و الرّاحلة " في القصيدة الجاهليّة ، وحدة صراع (الحياة / الموت) ، و لكنّه لا يقنع بالعرض البصريّ المادّيّ لطرفي الصّراع : (البعير / الفلاة) ، بل يفلسفه تعميقا للتّجربة الرّحليّة في حياة الشّاعر ، حيث يجعل من الفعل " رعى " محرّك هذا الصّراع الأزليّ ؛ فالبعير يرتع في أعشاب الفلاة فيقحلها ، و هي ترعاه حين تعمل على إنضائه (إهزاله) بإقفارها و حمّارة القيظ فيها ، ثمّ يأتي عام يغاث فيه الخلق ، و تعمّ الحياة في عطائها المعهود .

و من أمثلة الإحالات التاريخية في الشّعر ، قول أبي تمّام :

و كــأنّما أهدى شقــائقَهُ إلى وَجَــنَاتِهِـنَّ بهــا أبو قابـوسَا

قدْ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شيء بهجةً وَدَدًا و حُسْنًا في الصِّبا مَغموسَا

لولا حَداثتُــها و أنّي لا أَرى عَرشًا لها لَظَنَـنْـتُها بَلْقِـيـسَـا

ففي معرض وصفه لسرب من الفتيات الأبكار الفائقات الجمال ينعمن بطيب العيش و رفاهته ، و قد علت الحمرة خدودهنّ ، و كانت أصغرهنّ تفوقهنّ نضارة و بهجة ، قد أحال إلى شخصيتين تاريخيتين ترمزان إلى المجد العربيّ التّليد ؛ إحداهما " بلقيس " ملكة سبإ التي وصف القرآن الكريم عظمة ملكها في قوله تعالى : "إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيم" (سورة النمل : 23) . أمّا الشخصية الأخرى فهي أمير الحيرة " أبو قابوس النّعمان بن المنذ ر " الّذي ضاهى بلاطه بلاط كبار الملوك في عصره ، و ازدان مجلسه بزمرة من فحول شعراء الجاهلية ، أمثال النّابغة الذّبيانيّ و لبيد بن ربيعة ، و حسّان بن ثابت ، و بلغ من رقّة ملكه أن نسبت إليه زهرة " شقائق النّعمان ' ، لأنّه أمر بحمايتها من الإضرار بها .

و من أسباب الغموض أيضا "ما يرجع إلى الألفاظ و العبارات من تلك الوجوه فمثل أن يكون اللّفظ حُوشيّا أو غريبا أو مشتركا ... و من ذلك أن يقع في الكلام تقديم و تأخير ، أو يتخالف وضع الإسناد فيصير الكلام مقلوبا ... و من ذلك فرط الإيجاز الذي يكون بقصر أو حذف . "

فمن أمثلة الإغراب اللفظيّ و توعير مسالك الألفاظ قول أبي تمّام :

و لو لا تُــقــــاهُ عادَ قَيْـضًا مُغَـلَّقًا بأُدْحِيِّهِ بَيْضُ الخُدور التّرائكُ

و لَاصْطُفيتْ شَوْلٌ فظلّت شَواردًا قُرومُ عِـشارٍ ما لهنّ مَـبارِكُ

فربّما كان المعنى سهلا بسيطا ، لكنّ أبا تمّام ، بميله إلى غريب اللّفظ رغبة منه في إدهاش المتلقي ، أخرج هذا المعنى إخراجا سيّئا حال دون وصوله إلى القارئ .

و من غريب اللّفظ و عاميّه قوله :

لم يُسوَّدْ وجهُ الوِصَالِ بِوَسْـ ـمِ الحُبِّ حتّى تَكَشْخَنَ العشّاقُ

فاللّفظة (تكشخن) غريبة ، لأنّها عامية لم تعرفها العرب ، و مع غرابة اسوداد وجه الوصال بوسم الحبّ ، صارت الصّورة الشعريّة بعيدة المنال لدى المتلقّي .

و من الغموض النّاجم عن تقديم المتأخّر و تأخير المتقدّم ، فتتداخل الألفاظ بعضها على بعض ، فتَشْكُلُ العبارة ، قول همّام بن غالب الفرزدق :

و ما مِثْلُهُ في النّاس إلّا مملّكًا أبو أمِّهِ حيٌّ أبوهُ يُقاربُهْ

يريد : و ما مثله في النّاس حيّ يقاربه إلّا مملّكا أبو أمّه أبوه ، و يعني بالمملّك هشام بن عبد الملك الخليفة الأمويّ ، و الممدوح خاله ، فأبوه أبو أمّه ، فقد أساء العبارة عمّا أراد .

و بعد أن يعدّد "حازمٌ" أسباب الغموض في الشّعر ، ينصح الشّاعر بتجنّب الإحالات التّاريخية أو الأَمْثاليّة أو العلميّة أو الإشارات التّضمينيّة ، مراعاة لما يدعوه السّيميائيّون المعاصرون " الرّصيد المعلوماتيّ " لدى المتلقّي ، حتّى يتمكّن من فهم هذه الإحالات .

و مع " الرّصيد المعلوماتي " ، يحتاج المتلقّي إلى " الكفاءة اللّغويّة الخاصّة " متى كان الغموض متعلّقا بالألفاظ و العبارات بخاصّة .

و انتصارًا من "حازم" للوضوح ، نراه يصف للشّاعر حِيَلاً يستطيع بها أن يخفّف من درجة "الغموض" في شعره أو يزيلها . فإذا كان المعنى نفسه دقيقا وجب على الشّاعر أن يؤدّيه بأبسط عبارة ، أو أن يقرن المعنى بما يناسبه من الأمور التّوضيحيّة . كما أكّد على اعتماد القصص المشهورة حتّى لا تكتسي الإشارات بالغموض ، و نصح الشّاعر أن يبتعد عن العبارات المتعلّقة بصنائع أهل المهن ، أو العبارات الدّالة على المعاني العلميّة .

قال أبو تمّام في وصف الخمرة :

جَهْمِيّةُ الأوصافِ إلّا أنّهم قد لَقّبوهَا جَوْهرَ الأشياءِ

و أبو تمّام من وُصّاف الخمر ، فكأنّه قد ذهب مذهب جَهْمٍ ، لأنّه يجعل الخمر لا فعل لها ، ثمّ يزعم أنّها أسكرته و شوّقته ، فيختلف خَبَراهُ عنها في الحال الواحدة .

و يقول أبو عليّ المرزوقيّ (ت . 421 هـ) : " كان جَهمُ بن صَفْوانَ يمتنع من أن يُسمّي اللّه تعالى شيئا ، و يعتقد أن هذه اللّفظة إنّما تُطلَقُ على المُحْدَثات : الجَواهر و الأَعْراض ؛ فيقول : رَقَّتْ هذه الخمرة حتّى كادت تخرج من أن تكون عَرَضًا أو جَوْهَرًا ، و أن تُسمّىَ شيئا ، إلّا أنّها لفخامة شأنها لُقِّبتْ جوهر الأشياء. و يجوز أن تكون لِعِتْقِهَا و قِدَمِهَا سُمِّيَتْ أصلَ الأشياء و أوّل الأشياء " .

و الواقع أنّ "الغموض" الذّي وُصف به شعر أبي تمّام ، إنّما هو سِمة تسرّبت إلى شعره في أثناء بحثه عن تلك اللّغة الخاصّة التّي تلبّي شَغَفَهُ بألوان البديع ، و تُرضي تفكيره الجَدَليّ الذّي لا يقنع بالوقوف عند السّطح ، بل يمضي إلى سَبْر أغوار الأفكار و النّفوس و الأحوال . فهو يتناول ألفاظ اللّغة و تراكيبها المألوفة بشكل مُختلف ، فينتج دلالات جديدة ، و يفجّر طاقات كامنة في اللّغة ، في مستواها الإبداعيّ ؛ و من هذا السّبيل ، فهم أبو تمّام وفاءه لتراثه العربيّ اللّغويّ و الشّعريّ ، و تَجاوُزِه لِه . فلم يقل شاعرنا معانيَ فلسفيّة دخيلة بتراكيب عربيّة موروثة، بل قرأ الفلسفة ، فتأثّر بها تفكيره ، و تغذّت بها مَلَكته الإبداعيّة ، و تَسرّبَ هذا التّأثير إلى صميم نسيج شعره ؛ فبَدَتْ ألفاظه غريبة ، وتراكيبه معقّدة، و صُوره غامضة ، تَكدُّ ذهن المتلقّي العاديّ و المختصّ بالشّعر على السّواء .

****